بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

فى البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق (١٠٨٤)

---

١ — فصل فى أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

و بيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التى يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه . وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها . وأيضاً فالمدن

(١٠٨٤) عرض ابن خلدون فى هذا الباب لما سماه العلّامة دوركايم « المورفولوچيا الاجتماعية » La morphologie Sociale أى علم البِنْيَة الاجتماعية ، وهى الشعبة التى تعالج الظواهر المتصلة بطريقة التجمع الإنسانى وبالنظم التى يسير عليها المجتمع فى إنشاء مواطن التجمع كالمدن والقرى والأمصار والمساكن ، والطرق التى يتبعها فى تصميمها وأشكالها ومرافقها ووظائفها ومواقعها بالنسبة إلى الجبال والبحار والأنهار والبحيرات .. وجميع ما يتصل بهذه الشئون . وقد ظن دوركايم وأعضاء مدرسته أنهم أول من فطن إلى الخواص الاجتماعية لهذه الظواهر وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع . ولم يدروا انه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون (انظر صفحات ١١١ — ١١٣) .

هذا ، وقد عالج ابن خلدون فى بعض فصول من هذا الباب أموراً تتصل بشئون الاقتصاد ولكنها متأثرة بالظواهر المورفولوچية (انظر تمهيدنا للمقدمة ، الجزء الأول ص١١٣ وتعليق ٢ فى هذه الصفحة) .

والأمصار ذات هيا كل وأجرام عظيمة وبناء كبير ، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص ، فتحتاج إلى اجتماع الأيدى وكثرة التعاون ، وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً ، بل لا بد من إكراههم على ذلك ، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مُرَغَّبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة . فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك .

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها ، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها ، فعمر الدولة حينئذ عمر لها : فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت ؛ وإن كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد ، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح ، إلى أن تتسع الخِطَّة[٧٣] ، وتبعد المسافة ، وينفسح ذرع المساحة ، كما وقع ببغداد وأمثالها . ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام . وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران . وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية ، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد[(١٠٨٥)] .

وأما بعد انقراض الدولة المُشَيِّدَةِ للمدينة ؛ فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائماً ، فيكون ذلك حافظاً لوجودها ، ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبِجَايَة[٢١٥ج] من المغرب ، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال . لأن أهل البداوة

(١٠٨٥) كتب ابن خلدون هـذا وهو في المغرب قبل قدومه إلى مصر ، ولم يغيره في تعديله للمقدمة بعد قدومه إليها . (انظر ما كتبناه في هذا الموضوع في تمهيدنا للمقدمة صفحات ١٦١ — ١٦٥) .

إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرَّفْهِ[٥٠٧] والكسب ، تدعو إلى الدعة والسكون الذى فى طبيعة البشر ، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون[١٠٨٦] . وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها ، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها ، فيزول حفظها ، ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن يبذعر[٤٢٩] ساكنها وتخرب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه . وربما ينزل المدينةَ بعد انقراض مختطيها الأولين مَلِكٌ آخر ودولة ثانية ، يتخذها قراراً وكرسياً يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها ، فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها ، وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢ - فصل فى أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران فى البدو ؛ والثانى دفع ما يُتَوَقَّعُ على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين ، لأن المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم ، والخروج عليهم ، وانتزاع ذلك الملك الذى سموا إليه من أيديهم ، فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ، ومغالبة المصر على نهاية

(١٠٨٦) هكذا فى جميع النسخ . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « ويتأهلون فيها » . ويظهر لى أنها محرفة عن « يتأثلون » بالثاء من أثل يأثِل أثولا وتأثل بمعنى تأصل واستقر (انظر تعليق ٤٧٥ ب) . ويكون المعنى يتأصلون ويستقرون . وهذه الكلمة يستخدمها ابن خلدون كثيراً فى مثل هذا المقام .

من الصعوبة والمشقة ؛ والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة ؛ لأن الشوكة والعصابة إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات ، لما يقع من بعد كرّة القوم بعضهم على بعض عند الجولة ؛ وثباتُ هؤلاء بالجدران ، فلا يضطرون إلى كبير عِصابةٍ ولا عدد . فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يَفُتّ (١٠٨٧) في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء ، ويخضِد (١٠٨٨) شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أحيائهم (١٠٨٨ب) أمصار انتظموها في استيلائهم ، للأمن من مثل هذا الانخرام ٨٦٣ . وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا ، وحط أثقالهم ، وليكون ثانياً شجاً في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم . فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق لا رب سواه .

٣ — فصل في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يُشَيِّدها (١٠٨٩) الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها (١٠٩٠) ، وأنها تكون

(١٠٨٧) فتّ يفُتّ من باب رد بمعنى كسر وأضعف .

(١٠٨٨) خضد الشجر قطع شوكه وبابه ضرب فهو خضيد ومخضود (المختار) ومنه قوله تعالى : « في سدر مخضود » (آية ٢٨ من سورة الواقعة ، وهي سورة ٥٦) .

(١٠٨٨ب) هكذا وردت هذه الكلمة في النسخة الخطية المشار إليها في تعليق ٩٠٠ ؛ ووردت في جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « أجنابهم »

(١٠٨٩) شاد الحائط يشيده فهو مشيد طلاه بالشِّيد وهو ما يطلى به من جِصّ ونحوه . والمشيد المطلي بالشيد . وشيّدت البيت تشييداً فهو مُشَيَّد طوّلته ورفعته (من القاموس والمصباح) . والفعل المشدد هو المقصود في عبارة ابن خلدون .

(١٠٩٠) يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث (انظر ص ٤٩٦ وتوابعها) .

على نسبتها . وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفَعَلة وكثرتهم وتعاونهم ؛ فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِر الفَعَلة من أقطارها ، وجُمعت أيديهم على عملها . وربما استعين فى ذلك فى أكثر الأمر بالهندام[١٠٩١] الذى يضاعف القوى والقُدَر فى حمل أثقال البناء ، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك ، كالمَحَال[١٠٩٢] وغيره . وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة ، مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب ، إنما كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين ، فيتخيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير فى طولها وقُدَرها لتتناسب بينها وبين القُدَر التى صدرت تلك المبانى عنها ، ويَغفُل عن شأن الهندام[١٠٩١] والمَحَال[١٠٩٢] ، وما اقتضته فى ذلك الصناعة الهندسية .

وكثير من المتغلبين فى البلاد يعانى فى شأن البناء واستعمال الحيل فى نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عِياناً . وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادِيَّة[٢٣٣] نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مبانى عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قُدَرهم ، وليس كذلك ، فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهى فى مثل ذلك العظم أو أعظم ، كايوان كسرى ومبانى العُبَيْدِيين[٦١٧]

(١٠٩١) يطلق الهِنْدام على حسن التنظيم والإصلاح والإدارة ، يقال « شىء مهندم أى مصلح على مقدار » (القاموس . — انظر كذلك تعليق ٥١٦) . — ويقصد به ابن خلدون هنا ما يشمل كذلك العُدد والآلات والأجهزة التى يستعان بها فى الصناعات .

(١٠٩٢) « المَحالة والمَحَال الخشبة التى يستقر عليها الطيانون (البناءون) فى أثناء بنائهم وتشييدهم للبيوت » (من القاموس) . وهى التى يسميها العامة فى مصر « السقالة » . — هذا وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى جميع الطبعات السابقة . ففى « ل » و « م » و « دار الكتاب اللبنانى » وردت بالخاء المعجمة (المخال) . وفى « ن » وردت بزيادة النون بين الميم والحاء (المنحال) . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ وردت بميم فياء فخاء « الميخال » .

من الشيعة بإفريقية[٤٩ب]، والصنهاجيين[٥٠] وأثرهم باد إلى اليوم فى صومعة قلعة بنى حماد، وكذلك بناء الأغالبة فى جامع القيروان، وبناء الموحدين[٩٣٦] فى رباط الفتح ورباط السلطان أبى سعيد لعهد أربعين سنة فى المنصورة بإزاء تلمسان[٨٤٩]، وكذلك الحنايا التى جلب إليها أهل قرطاجنة الماء فى القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد، وغير ذلك من المبانى والهياكل التى نُقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً، وتيقنّا أنهم لم يكونوا بإفراط فى مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأى ولع[٤٨] به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة. ونجد بيوت ثمود فى الحجر منحوتة إلى هذا العهد. وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازى أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد فى جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد. وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك، حتى إنهم يزعمون أن عوج بن عناق[٥١٧] من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه فى الشمس، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها، ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء، وأما الشمس فى نفسها فغير حارة ولا باردة، وإنما هى كوكب مضىء لا مزاج له[٥١٨]. وقد تقدم شىء من هذا فى الفصل الثانى[١٠٩٠]، حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها فى أصلها. والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١٠٩٣) صوابه الفصل الثالث (الباب الثالث بحسب اصطلاحنا؛ انظر تعليق ١٦٥). ويقصد ما ذكره فى الفصل الثامن عشر من الباب الثالث (من الفصل الثالث الرئيسى بحسب اصطلاح ابن خلدون). انظر ص ٤٩٦ وتوابعها. ولعل الفصل الثالث كان الثانى فى أول ترتيب للمقدمة ثم تغير بعد ذلك بدون أن يغير ابن خلدون رقمه فى هذه الفقرة (انظر نظائر لذلك فى تعليق ٤٠٢، ٤٤٢).

٤ — فصل فى أن الهياكل العظيمة جداً

لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب فى ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القُدَر البشرية ؛ وقد تكون المبانى فى عظمها أكثر من القُدَر مفردة أو مضاعفة بالهندام[١٠٩١] كما قلناه فيُحتاجُ إلى معاودة قُدَر أخرى مثلها فى أزمنة متعاقبة إلى أن تتم ، فيبتدىء الأول منهم بالبناء و يعقبه الثانى والثالث ، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه فى حشر الفَعَلَة وجمع الأيدى حتى يتم القصد من ذلك ويكمل و يكون ماثلا للعيان ، يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة .

وانظر فى ذلك ما نقله المؤرخون فى بناء سد مأرب وأن الذى بناه سبأ بن يشجب ، وساق إليه سبعين وادياً ، وعاقه الموت عن إتمامه ، فأتمه ملوك حمير من بعده . ومثل هذا ما نقل فى بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العاديَّة[٢٣٣] . وأكثر المبانى العظيمة فى الغالب هذا شأنها . و يشهد لذلك أن المبانى العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع فى اختطاطها وتأسيسها ، فإذا لم يتبع أثره مَن بعده من الملوك فى اتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها .

و يشهد لذلك أيضاً أنا نجد آثاراً كثيرة من المبانى العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها ، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير ، لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذى هو العدم ، والبناء على خلاف الأصل . فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم ، علمنا أن القدرة التى أسسته مفرطة القوة ، وأنها ليست أثر دولة واحدة . وهذا مثل ما وقع للعرب فى إيوان كسرى ، لمَّا اعتزم الرشيد على هدمه و بعث إلى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يستشيره فى ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا ، يُستدل به على عظم

ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل . فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النُّعرة[٣٧٩] للعجم ، والله لأصرعنّه ، وشرع في هدمه وجمع الأيدى عليه ، واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار ، وصب عليه الخل . حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة ، بعث إلى يحيى يستشيره ثانياً في التجافى عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمرّ على ذلك ؛ لئلا يقال عجز أمير المؤمنين ومَلِكُ العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم . فعرفها الرشيد وأقصر[(١٠٩٣ب)] عن هدمه .

وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يَحْلَ[(١٠٩٣ج)] بطائل ، وشرعوا في نقبه ، فانتهوا إلى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان ، وهنالك كان منتهى هدمهم ؛ وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد رِكازاً[(١٠٩٤)] بين تلك الحيطان . والله أعلم .

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عَصْب الريق[(١٠٩٥)] ، وتجتمع له المحافل المشهورة ؛ شهدت منها في أيام صباى كثيراً . « والله خلقكم وما تعملون »[(١٠٩٦)] .

(١٠٩٣ب) أقصر عن الشيء عجز (القاموس) .

(١٠٩٣ج) « يقال حَلِيَ منه بخير ، وحلا يحلو ، أصاب منه خيراً » (القاموس) .

(١٠٩٤) « الرِّكاز المال المدفون فِعال بمعنى مفعول كالبساط بمعنى المبسوط والكتاب بمعنى المكتوب . ويقال هو المعدن » (المصباح) .

(١٠٩٥) عَصْبُ الريق جفافه في الفم (من القاموس) . والجملة كناية عن شدة التعب .

(١٠٩٦) آية ٩٦ من سورة الصافات ، وهى سورة ٣٧ .

٥ — فصل فيما تجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة

اعلم أن المدن قرار يتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار . ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها .

فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك فى متمنّع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فيصعب مَنالُها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها . ومما يراعى فى ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض ؛ فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها ، فأسرع المرض للحيوان السكائن فيه لا محالة ؛ وهذا مشاهد .

والمدن التى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض فى الغالب . وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد[٢١٦] بإفريقية[٤٩ب] ، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه . ولقد يقال إن ذلك حادث فيها ، ولم تكن كذلك من قبل . ونقل البكرى فى سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص ، فلما فض خِتامُه[٨٢٧] صَعِد منه دخان إلى الجو وانقطع ؛ وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه . وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملا على بعض أعمال الطِلَّسْمات لوبائه ، وأنه ذهب سره

بذهابه ، فرجع إليها العفن والوباء . وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة . والبكرى لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرَفه فنقله كما سمعه . والذى يكشف لك الحق فى ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودُها ، فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يميناً وشمالا خف شأن العفن والمرض البادى منها للحيوانات . والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ، ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج . وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه ، وبقى ساكناً راكداً وعظم عفنه وكثر ضرره . وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية[٤٩ب] مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً ؛ فسكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه ؛ فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض . وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها ، فكثر العفن والمرض ، فهذا وجهه لا غير . وقد رأينا عكس ذلك فى بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة ، فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك . وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد ، وكثير من ذلك فى العالم . فتفهمه تجد ما قلناه لك .

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور . منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرّة[١٠٩٧] فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورية ، فيكون لهم فى وجوده مِرْفَقَةٌ عظيمة عامة . ومما يراعى من المرافق فى المدن طيب المراعى لسائمتهم ؛ إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنِّتاج[٣٥٢] والضرع والركوب ، ولا بد لها من

(١٠٩٧) « الثَّرَّة من العيون الغزيرة » (القاموس) .

المرعى ؛ فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم ، لما يعانون من المشقة فى بُعده . ومما يراعى أيضاً المزارع ؛ فإن الزروع هى الأقوات ؛ فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل فى اتخاذه وأقرب فى تحصيله . ومن ذلك الشجر للحطب والبناء ؛ فإن الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ ؛ والخشب أيضاً ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضروريانهم . وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية؛ إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول .

وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات ، وما تدعو إليه ضرورة الساكن . وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى أو إنما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ، ولا يذكر حاجة غيرهم ، كما فعله العرب لأول الإسلام فى المدن التى اختطوها بالعراق وإفريقية[٤٩ب] ، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعى الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظِلف ولا غير ذلك ، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما[٥٨١] لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

(فصل)[٣٠٩] ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخاً[١٠٩٨] للمدينة متى طرقها طارق من العدو . والسبب فى ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر من الجبل كانت فى غِرّة[٩٦٦] للسبيات[٨٤٨] ، وسهل طروقها فى الأساطيل البحرية على عدوها وتحيُّفه[٨١٥] لها ، لما[٥٨١] يأمن من وجود الصريخ[١٠٩٨] لها ، وأن الحضر المتعودين

(١٠٩٨) « الصريخ والصارخ المغيث والمستغيث ، ضد » (القاموس) .

الدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة ؛ وهذه كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ[١٠٩٨] والنفير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى أسنمتها ، كان لها بذلك مَنَعَةٌ من العدو ويئسوا من طروقها ، لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها[١٠٩٨] ، كما فى سَبْتَة[٢٢١ب] وبجاية[٢١٥ج] وبلد القل على صغرها . فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية ، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية[٤٩ب] ، وإنما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها. ولذلك — والله أعلم — كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس فى الملة مرات متعددة . والله تعالى أعلم .

٦ — فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم[٥٦٥ب]

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاعاً اختصها بتشريفه ، وجعلها مواطن لعبادته ، يضاعف فيها الثواب ، وينمى بها الأجور ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم .

وكانت المساجد الثلاثة هى أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت فى الصحيحين[١٠٠٨] وهى مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما البيت الحرام الذى بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يؤذن فى الناس بالحج إليه ، فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن ، وقام بما أمره الله فيه ، وسكن إسماعيل به مع هاجَر ومن نزل معهم من جُرْهُم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحِجْر منه .

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام . أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ؛ ودفن كثير من الأنبياء من وُلد إسحق عليه السلام حواليه .

والمدينة مُهاجَر[١٠٩٩] نبينا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحَدُه الشريف فى تربتها .

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ، وعظمة دينهم . وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف . فلنشر إلى شىء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها فى العالم.

فأما مكة فأوليتها — فيما يقال — أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك . وليس فيه خبر صحيح يعول عليه ، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية فى قوله : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل[١١٠٠] » . ثم بعث الله إبراهيم ، وكان من شأنه وشأن زوجته سارَة وغيرتها من هاجَر ما هو معروف . وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة ، فوضعهما فى مكان البيت وسار عنهما ، وكيف جعل الله لهما من اللطف فى نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما ، حتى احتملوهما وسكنوا إليهما ، ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف فى موضعه[١١٠١] . فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوى إليه ، وأدار عليه سياجاً من الدَّوْم[١١٠١ب] وجعله

(١٠٩٩) اسم مكان من هاجر . واسم المكان من غير الثلاثى يكون على وزن اسم المفعول .

(١١٠٠) آية ١٢٧ من سورة البقرة وهى السورة الثانية .

(١١٠١) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآية الرابعة والثلاثين من سورة إبراهيم وهى سورة ١٤ ، إذ يقول على لسان إبراهيم : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(١١٠١ب) هكذا فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . والدَّوْم بالفتح شجر المقل والنبق . وقد حرفت هذه الكلمة فى النسخ المتداولة إلى « الردم » .

زِرْباً[١١٠٢] لغنمه . وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام ؛ أمر فى آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزِّرْب ، فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه[١١٠٣] ، و بقى إسماعيل ساكناً به . ولما قبضت أمه هاجَر [دفنها ، ولم يزل قائماً بخدمته إلى أن قبضه الله تعالى ودفن مع أمه هاجر].[١١٠٤] وقام بنوه بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ، ثم العماليق من بعدهم ، واستمر الحال على ذلك ، والناس يُهْرَعون إليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لا من بنى إسماعيل ولا من غيرهم[١١٠٥] ممن دنا أو نأى . فقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تُبَّعاً كساها الملاء والوصائل ، وأمر بتطهيرها ، وجعل لها مفتاحاً . ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحجه وتُقَرِّب إليه ، وأن غَزالَىْ الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم . ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد وُلْدِ إسماعيل من قِبَل خؤولتهم ، حتى أخرجتهم خزاعة[١١٠٦] وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله . ثم كثر وُلْد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة ، ثم كنانة إلى قريش وغيرهم ، وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم

(١١٠٢) « الزَّرْب بالفتح والكسر موضع الغنم كالزريبة » (من القاموس) .

(١١٠٣) أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآيتين ٢٦ ، ٢٧ من سورة الحج وهى سورة ٢٢ ، اذ يقول : « وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشركْ بى شيئاً وطهِّرْ بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

(١١٠٤) المحصور بين هذين القوسين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة ، وقد عثرنا عليه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ ؛ والمعنى يدونه غير مستقيم كما لا يخفى .

(١١٠٥) هكذا فى جميع النسخ ، وصوابه بحذف لا النافية فى التركيبين . وقد جرت عادة ابن خلدون بزيادة لا النافية فى مثل هذا الموضع حيث يريد الشمول الإيجابى . وقد مرت عبارات كثيرة من هذا القبيل .

(١١٠٦) هكذا فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد حرفت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة إلى ما يلى « حتى إذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله » . والعبارة على هذا الوضع المحرف غير سليمة كما لا يخفى .

قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملّكوا عليهم يومئذ قُصَيّ بن كلاب فبنى البيت وسقّفه بخشب الدوم وجريد النخل . وقال الأعشى :

حلفت بثوبى راهب الدور والتى بنـــاها قصى والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ، ويقال حريق ، وتهدم، وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم . وانكسرت سفينة بساحل جُدّة فاشتروا خشبها للسقف . وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً ، وكان الباب لاصقاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول ، وقصّرَتْ بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبراً أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحِجْر (١١٠٧) . وبقى البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير

(١١٠٧) مع أن قريشا كانت من أكثر قبائل العرب فى الجاهلية حبّا للمال وتفانياً فى جمعه وتعاملا بالربا ، فإنها كانت تنظر إلى الكسب الذى يأتى عن طريق الربا على أنه كسب حرام من الناحية الدينية وسحت من ناحية الأخلاق . ولا أدل على ذلك من أنه عندما تهدم سور الكعبة وأرادت قريش إعادة بنائه حرصت على أن تجمع الأموال اللازمة لذلك من البيوتات التى لا تتعامل بالربا ، حتى لا يدخل فى بناء البيت مال حرام . ولما كانت هذه البيوتات حينئذ قليلة العدد ، فإن ما جمع منها لم يكف لبناء السور كله ، فبقى جزء منه غير مبنى ، وهو المسمى الآن بحجر اسماعيل . فقد ذكر ابن اسحق فى السيرة عن عبد الله بن أبى نجيح أنه أخبره عن عبد الله بن صفوان بن أمية أن أبا وهب بن عابد بن عمران بن مخزوم ، وهو جد جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، قال لقريش لا تُدْخِلوا فيه (أى فى بناء البيت) من كسبكم إلا الطيب ، ولا تدخلوا فيه مهر بغىّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . وروى سفيان بن عيينه فى جامعه عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه أنه شهد عمر ابن الخطاب أرسل إلى شيخ من بنى زهرة أدرك ذلك ، فسأله عن بناء الكعبة ، فقال : إن قريشا تقربت لبناء الكعبة بالطيّبة (أى بالنفقة الطيبة) فعجزت ، فتركوا بعض البيت فى الحِجْر . فقال عمر صدقت . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجدر (وهى لغة فى الجدار ، وفى رواية الحِجْر) : أمن البيت هو ؟ قال نعم . قلت فما لهم لم يدخلوه فى البيت . قال ألم ترىْ قومك قصرت بهم النفقة (أى النفقة الطيبة التى ليس فيها ربا) . قالت فما شأن بابه مرتفعا . قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا . ولولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر (أى الحجر) فى البيت وأن ألصق بابه بالأرض ! (أى لفعلت) . (انظر فتح البارى على صحيح البخارى فى شرح هذا الحديث فى باب « فضل مكة وبنيانها » وقوله تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (آية ١٢٥ من سورة البقرة ، وهى السورة الثانية) .

بمكة حين دعا لنفسه ، وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق ، يقال من القفط الذى رموا به على ابن الزبير ، فأعاد بناءه أحسن ما كان ، بعد أن اختلفت عليه الصحابة فى بنائه ، واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ، ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا[١١٠٧] ، فهدمه وكشف عن أساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه . وأشار عليه ابن عباس بالتحرى فى حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظا للقبلة . وبعث إلى صنعاء فى القصّة[١١٠٧ب] والكلس[١١٠٨] ، فحملها ، وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه . ثم شرع فى البناء على أساس ابراهيم عليه السلام ، ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى فى حديثه ، وجعل فرشها وأزرها[١١٠٩] بالرخام ، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب . ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانها . ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده فى البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هى اليوم . ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة ، وقال : وددت أنى كنت تركت أبا حبيب فى أمر البيت وبنائه ما تحمل . فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحِجْر[١١٠٧] ، وبناه على أساس قريش ، وسد الباب الغربى وما

(١١٠٧ب) « القَصَّة بفتح القاف وقد تكسر الجَصَّة ، والجَصَّة هى الجِصّ ، وهو مادة معروفة يبنى بها . وقد وردت هذه الكلمة على هذه الصورة الصحيحة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ ، بينما وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « الفضة » .

(١١٠٨) الكِلس بالكسر الصاروج يبنى به وتطلى به الحوائط ؛ والصاروج هو النُّورة وأخلاطها . وقد كلست الحائط طليتها بالكِلس .

(١١٠٩) « أزّرت الحائط تأزيراً جعلت له من أسفله كالإزار ، وآزرته مؤازرة أعنته وقويته ، والاسم الأزْر مثل فَلْس » (المصباح) .

تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقى ، وترك سائرها لم يغير منه شيئا . فكل البناء الذى فيه اليوم بناء ابن الزبير ، و بناء الحجاج فى الحائط صلة ظاهرة للعيان، لمة ظاهرة بين البناءين ، والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع ، وقد لُحم .

و يعرض ههنا إشكال قوى لمنافاته لما يقوله الفقهاء فى أمر الطواف: «و يحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها ، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه ، وهو مكان الشاذروان» . وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الأسود «لابد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوى قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت » . وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير ، وهو إنما بنى على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذى قالوه ؟ ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده ، وقد نقل ذلك جماعة ؛ إلا أن العيان فى شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر فى الصناعة يرد ذلك؛ و إما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته ، وإنما فعل ذلك فى الحِجْر[١١٠٧] فقط ليدخله ، فهى الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم ، وهذا بعيد . ولا محيص من هذين . والله تعالى أعلم .

ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ، ولم يكن عليه جدر أيام النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر من بعده . ثم كثر الناس فاشترى عمر رضى الله عنه دوراً هدمها وزادها فى المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة . وفعل مثل ذلك عثمان ، ثم ابن الزبير ، ثم الوليد بن عبد الملك و بناه بِعُمُد الرخام ، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدى من بعده . ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا .

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به . وكفى من

ذلك أن جعله مهبطاً للوحى والملائكة ومكاناً للعبادة وفرضِ شعائر الحج ومناسكه ، وأوجب لحَرَمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره : فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم ؛ وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره ؛ وحمى العائذ به والراتع فى مسارحه من مواقع الآفات ، فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر . وحد الحرم الذى يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر .

هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى ، وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ، ويقال لها أيضاً بكة . قال الأصمعى لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أى يدفع . وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميما ، كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين . وقال النخعى بالباء البيت وبالميم البلد . وقال الزهرى بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم .

وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه ، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره . وقصة الأسياف وغزالى الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة . وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة فى الجب الذى كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب ، مما كان الملوك يهدون للبيت ، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتى قنطار وزناً . وقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : « يا رسول الله ! لو استعنت بهذا المال على حربك » ، فلم يفعل . ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه . هكذا قال الأزرقى . وفى البخارى بسنده إلى أبى وائل قال : جلست إلى شيبة بن عثمان ، وقال جلس إلى عمر بن الخطاب فقال : هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين . قلت ما أنت بفاعل . قال ولم ؟ قلت فلم يفعله صاحباك . فقال هما اللذان يقتدى بهما . وخرّجه أبو داود وابن ماجة . وأقام ذلك المال

إلى أن كانت فتنة الأفطس ، وهو الحسن بن الحسين(١١٠٩ب) بن على بن على زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة ، حين غلب على مكة ، عمد إلى الكعبة فأخذ ما فى خزانتها ، وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به ؟ نحن أحق به نستعين به على حربنا . وأخرجه وتصرف فيه و بطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ .

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزُّهرة(١١١٠) وكانوا يقرّبون إليه الزيت فيما يقرّبونه يصبونه على الصخرة التى هناك . ثم دثر ٣٨٧ ذلك الهيكل ، واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببنى اسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السمط عُيِّن بالوحى مقدارُها وصفتها وهيا كلها وتماثيلها ، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصِحافها ومنارة بقناديلها ، وأن يصنع مذبحاً للقربان ، وصف ذلك كله فى التوراة أكمل وصف(١١١١) . فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد ، وهو التابوت الذى فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ، ووضع المذبح عندها . وعهد الله إلى موسى بأن يكون هرونُ صاحبَ القربان(١١١٢) . ونصبوا تلك القبة بين خيامهم فى التيه يصلون إليها و يتقربون فى المذبح أمامها ، و يتعرضون للوحى عندها. ولما ملكوا [أرض الشام أنزلوها بكَلْكال(١١١٢ب) فى بلاد الأرض

(١١٠٩ب) فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « الحسين بن الحسن » .

(١١١٠) الزُّهَرة كتُؤَدة الكوكب المعروف .

(١١١١) يشير بذلك إلى ما ورد فى الإصحاحات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ من سفر الخروج .

(١١١٢) الإصحاح ٢٨ من سفر الخروج .

(١١١٢ب) « الكلكل والكلكال الصدر » (القاموس). وهى هنا على ما يظهر اسم بلد أو مكان .

المقدسة ما بين قسمى بنى بنيامين و بنى إفرايم (١١١٢ج) و بقيت هنالك أربع عشرة سنة: سبعا مدة الحرب؛ وسبعا بعد الفتح أيام القسمة للبلاد. ولما توفى يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريبا من كلكال (١١١٢ب) وأداروا عليها الحيطان ، وأقامت هنالك (١١١٢د) ثلثمائة سنة حتى ملكها بنو فلسطين فى أيديهم كما مرّ (١١١٢هـ) وتغلبوا عليهم ، ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالى الكوهن إلى نوف، ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون فى بلاد بنى بنيامين . (١١١٢ج) ولما ملك داود عليه السلام نقل التابوت والقبة إلى بيت المقدس ، وجعل لها خباء خاصا ووضعها على الصخرة و بقيت تلك قبلتهم] . (١١١٢و) وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها ، فلم يتم له ذلك ، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام، واتخذ عُمُدَه من الصُّفْر، وجعل بهصرح (١١١٢ز) الزجاج، وغَشَّى أبوابه وحيطانه بالذهب ،وصاغ هيا كله وتماثيله وأوعيته ومناوره ومفاتيحه من الذهب ، وجعل ظهره مقببا ليودع (١١١٢ح) فيه

(١١١٢ج) فى النسخة التى ننقل عنها، وهى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « ما بين قسم بنى يامين وبين إفرايم » . وهو تحريف . انظر أسماء الأسباط العشرة فى تعليق ٧٣٢ .

(١١١٢د) فى النسخة الخطية التى ننقل عنها : « وأقامت ذلك » ، وهو تحريف كما لا يخفى .

(١١١٢هـ) انظر ص ٥٨٧ وتوابعها .

(١١١٢و) الموضوع بين هذين القوسين [ ] من آخر سطر فى الصفحة السابقة إلى هنا ساقط من جميع النسخ المتداولة. وقد عثرنا عليه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١١١٢ز) هو الصرح الذى تحدث عنه القرآن فى قصة ملكة سبأ مع سليمان إذ قال: «قيل لها ادخلى الصَّرْح ، فلما رأته حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقيها ؛ قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير » (آية ٤٤ من سورة النمل ، وهى سورة ٢٧).

(١١١٢ح) هكذا فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى هذه الصيغة : « وجعل فى ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد » .

تابوت العهد ، وهو التابوت الذى فيه الألواح، وجاء به من صهيون (١١١٢ط) إلى بلد أبيه داود [نقله إليها أيام عمارة المسجد ، فجىء به] (١١١٢ى) تحمله الأسباط والكهنوتية(١١١٣) حتى وضعه فى القبو (١١١٣ب) ، ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد ، وأقام كذلك ما شاء الله . ثم خرب بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه ،وأحرق التوراة والعصا ، وسبك(١١١٤) الهيا كل ونثر الأحجار .

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عُزَيْر نبى بنى اسرائيل لعهده ، باعانة بهمن ملك الفرس الذى كانت الولادة (١١١٥) لبنى إسرائيل عليه من سبى بختنصر ، وحد لهم فى بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، فلم يتجاوزوها

(١١١٢ط) هكذا فى جميع النسخ المتداولة . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « صيون » أو « ضيون » .

(١١١٢ى) الموضوع بين هذين القوسين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة ، ومثبت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١١١٣) هكذا فى «ل» وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وفى «م» و «ن» « تحمله الأسباذ » بالذال . وكلاهما غير واضح . أما كلمة الأسباط فتطلق على أولاد يعقوب المباشرين. وغنى عن البيان أنهم ليسوا هم المقصودين فى هذا المقام. وأما كلمة «الأسباذ» بالذال فلم نعثر على معنى لها .

هذا ، وقد وردت هـذه القصة بالتفصيل فى السفر الأول من سفرى الملوك فى العهد القديم . وتنص الفقرة الثالثة من الإصحاح الثامن من هذا السفر على أن التابوت قد جىء به محمولا على أعناق مقدمى القرابين Sacrificateures واللاويين (نسل لاوى وأولاد هارون . — وهم الذين كانوا يقومون بشئون الكهنوت . — انظر تعليق ٦١٥) . فلعل هـذين هما المقصودان بكلمتى الأسباذ والكهنوتية .

(١١١٣ب) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « القبر » بالراء .

(١١١٤) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « وصاغ » .

(١١١٥) هكذا فى جميع النسخ ، ولعلها « الولاية » ، وكلاهما غير واضح المعنى ، وإن كانت الأخيرة أقل خفاء .

وأما الأواوين (١١١٥ب) التى تحت المسجد ، يركب بعضها بعضاً ، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل فى طبقتين. فيتوهم كثير من الناس أنها اصطبلات لسليمان عليه السلام ، وليس كذلك ، وإنما بناها تنزيها لبيت المقدس عما يتوهمه من النجاسات ، لأن النجاسة فى شريعتهم ، وإن كانت فى باطن الأرض وكان ما بينها و بين ظاهر الأرض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها و بين الظاهر خط مستقيم ، ينجس ذلك الظاهر بالتوهم، والمتوهم عندهم كالمحقق، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة . فعمود الأواوين السفلية تنتهى إلى أقواسها ، وينقطع خطه فلا يتصل ، فلا ينتهى النجاسة بالأعلى على خط مستقيم . وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة ،ليكون ذلك أبلغ فى الطهارة والتقديس فى البيت المقدس] (١١١٥ج)

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم ، واستفحل الملك لبنى اسرائيل فى هذه المدة ، ثم لبنى حشمناى[٧٣٤] من كهنتهم ، ثم لصهرهم هيرودس[٧٣٤] ولبنيه من بعده . و بنى هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام ، وتأنق فيه حتى أكمله فى ست سنين . فلما جاء طيطس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها ، وأمر أن يزرع مكانه . ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه. ثم اختلف حال ملوك الروم فى الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين، وتنصرت أمه هيلانة ، وارتحلت إلى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات ، فاستخرجت الخشبة ، و بنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة ، كأنها على قبره بزعمهم ، وخربت ما وجدت من عمارة البيت ، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على

(١١١٥ب) الأواوين جمع إيوان كديوان وهو الصفة العظيمة .

(١١١٥ج) الموضوع بين هذين القوسين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة ، وقد عثرنا عليه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح، ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام .

وبقى الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس ، وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب، فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة ، وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه، وما سبق من أم الكتاب فى فضله حسبما ثبت .

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال... كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد. وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد ، وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه .

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة فى آخرها وكانت فى مَلَكة[٧٠] العُبَيْديين[٦١٧] خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة إلى بيت المقدس ، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام ، و بنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها و يفتخرون ببنائها . حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردى بملك مصر والشام ومحا أثر العُبَيْديين[٦١٧] وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس ، وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام ، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة ، وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة و بنى المسجد على النحو الذى هو عليه اليوم لهذا العهد .

ولا يعرض لك الإشكال المعروف فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع ، فقال مكة ، قيل ثم أى ؟ قال بيت المقدس ،

obeikandi.com

قيل فكم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ؛ فإن المدة بين بناء مكة و بين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان، لأن سليمان بانيه ، وهو ينيف على الألف بكثير . واعلم أن المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء ، وإنما المراد أول بيت عُيِّن للعبادة، ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة . وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزُّهَرَة[١١١٠]، فلعل ذلك أنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفى جوفها . والصابئة الذين بنوا هيكل الزُّهَرَة[١١١٠] كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس ، و إن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف ، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام . فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال .

وأما المدينة ، وهى المسماة بيثرب ، فهى من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة ، وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ، ثم جاورهم بنو قَيْلَة[١١١٥د] من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها .

ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها ، فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها و بنى مسجده و بيوته فى الموضع الذى كان الله قد أعده لذلك وشرفه فى سابق أزله . وآواه أبناء قَيْلَة[١١١٥د] ونصروه ؛ فلذلك سموا الأنصار . وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات . وغلب على قومه وفتح مكة وملكها . وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأعلمهم ذلك ، فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول . حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان مَلْحَده الشريف بها . وجاء فى فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا خفاء به .

(١١١٥د) «قَيْلة أم الأوس والخزرج» وهما القبيلتان اللتان تألف منهما «الأنصار» (القاموس) ؛ يقال لهما أبناء قَيْلَة .

ووقع الخلاف بين العلماء فى تفضيلها على مكة ، و به قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المدينة خير من مكة » ، نقل ذلك عبد الوهاب فى المعونة ، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك . وخالف أبوحنيفة والشافعى. وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام ، وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أوب .

فانظر كيف تدرجت الفضيلة فى هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها ، تفهم سر الله فى الكون وتدريجه على ترتيب محكم فى أمور الدين والدنيا .

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند ، لكنه لم يثبت فيه شىء يعول عليه . وقد كانت الأمم فى القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس ، وهيا كل يونان، وبيوت العرب بالحجاز التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بهدمها فى غزواته . وقد ذكر المسعودى منها بيوتا لسنا من ذكرها فى شىء إذ هى غير مشروعة ولا هى على طريق دينى ، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها . ويكفى فى ذلك ما وقع فى التواريخ ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها . والله يهدى من يشاء سبحانه .

٧ — فصل فى أن المدن والأمصار بإفريقية[٤٩] والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام ، وكان عمرانها كله بدوياً ، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها . والدول التى ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها . فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا إليها أقرب ، فلم تكثر مبانيهم . وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر ، لأنهم أعرق فى البدو ، والصنائع من توابع الحضارة ، وإنما تتم المبانى بها ، فلا بد من الحذق فى تعلمها ،

فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المبانى فضلا عن المدن . وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب ، لا يخلو عن ذلك جمع منهم ، والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو . وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها . فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ، ولا يدعو إلى ذلك إلا الترف والغنى ، وقليل ما هو فى الناس .

فلذلك كان عمران إفريقية[٤٩ب] والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقياطن[٨٤٧] وكمن فى الجبال ، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق[(١١١٦)] من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها ، لأن العجم فى الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون[٢٤٦] فى صراحتها[(١١١٧)] والتحامها إلا فى الأقل . وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب ، لأن لُحْمَة[(١١١٨)] النسب أقرب وأشد ، فتكون عصبيته كذلك ، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره . فافهمه وقس عليه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٨ — فصل فى أن المبانى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله فى البربر بعينه ، إذ العرب[٣٥٩] أيضاً أعرق فى البدو وأبعد عن الصنائع . وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الإسلام ، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفى رسوم

(١١١٦) « الرُّستاق والرُّسداق والرُّزداق بالضم السواد والقرى ، معرب رستا » (القاموس) .

(١١١٧) « الصَّرَح والصريح والصُّراح بالضم والفتح الخالص من كل شىء والاسم الصَّراحة ، وصرُح نسبُه ككرم خَلُص وهو صريح » (القاموس) .

(١١١٨) « اللحمة بالضم القرابة » (القاموس) .

الحضارة ؛ مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم . وأيضا فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة فى البنيان والإسراف فيه فى غير القَصْد [٣٩٣] كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة بالحجارة ، وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا من قبل ، فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة . وعهد إلى الوفد ، وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر . قالوا وما القدر ؟ قال مالا يقربكم من السَّرَف ولا يخرجكم عن القَصْد [٣٩٣] .

فلما بعد العهد بالدين والتحرج فى مثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف ، واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمبانى ، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف ، فحينئذ شيدوا المبانى والمصانع ، وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ، ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلا . وليس كذلك غيرهم من الأمم . فالفرس طالت مدتهم آلافا من السنين ، وكذلك القبط والنبط والروم ، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم ؛ فكانت مبانيهم وهيا كلهم أكثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً . واستبصر فى هذا تجده كما قلت لك . والله وارث الأرض ومن عليها .

٩ — فصل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب [٣٥٩] يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل

والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها . وله والله أعلم وجه آخر وهو أمَسُّ به ، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن كما قلناه [١١١٩] فى المكان وطيب

(١١١٩) يشير بذلك إلى ما ذكره فى الفصل الخامس من هذا الباب بشأن ما تجب مراعاته فى اختطاط المدن وما يعنى العرب بمراعاته ويغفلون غيره .

الهواء والمياه والمزارع والمراعى ، فإنه بالتفاوت فى هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعى. والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعى إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية ، لانتقالهم فى الأرض ، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد ، وأما الرياح فالقفر مختلف المهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات .

وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها إلا مراعى إبلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، ، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا[١١١٩] أنه يحتاج إليه فى حفظ العمران . فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس. فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن : « والله يحكم لا مُعَقِّبَ لحكمه[٥٠] » .

١٠ — فصل فى مبادىء الخراب فى الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن ، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرها مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزُّلُج[١١٢٠] والرخام والرَّبْج[١١٢١] والزجاج والفُسَيْفِساء[١١٢٢] والصدف ، فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة. فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها. فإذا تراجع

(١١٢٠) « الزُّلُج بضمتين الصخور الملس » (القاموس) .

(١١٢١) « الرَّبْج والرويج الدرهم الصغير الخفيف » (القاموس) .

(١١٢٢) هى ما نسميه الموزايكو mosaïque .

عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ، ففقدت الإجادة فى البناء والإحكام والمعالاة عليه بالتنميق . ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرها ، فتفقد و يصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم ، فينقلوها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا . ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة ، فيعودون إلى البداوة فى البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة ، والقصور عن التنميق بالكلية ، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر(١١٢٢ب) ، و يظهر عليها سيما البداوة ، ثم تمر فى التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به . سنة الله فى خلقه .

١١ — فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرَّفْه[٥٠٧] لأهلها ونَفَاق[٤٤] الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة[١٠٨٤]

والسبب فى ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته فى معاشه ، وأنهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك . والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد(١١٢٣) ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا . فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . و إذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر و إثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح ، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت ، فانه حينئذ قوت لأضعافهم مرات . فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم .

فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم

(١١٢٢ ب) هكذا فى «ن» ومعناها المدائن فى لغة المغرب. وفى نسخ أخرى «والمدر» وهى كذلك المدن والحضر . وفى نسخ أخرى « والمدائر » «والمدائر» وكلاهما تحريف عن « المداشر » على ما يظهر (انظر ص ٣٩٤ استدراك على ص ٢٧٠) .

(١١٢٣) فى جميع النسخ المتداولة « تشتد » وهو تحريف . والمعنى أن ما ينتج عن تعاون جماعة منهم يكفى لسد حاجة أضعافهم .

اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال ، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى . وقد تبين لك فى الفصل الخامس فى باب الكسب والرزق (١١٢٤) أن المكاسب إنما هى قيم الأعمال ، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ؛ ودعتهم أحوال الرفه [٥٠٧] والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتنفق [٤٤] أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قبل أعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها ، فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونفقت [٤٤] سوق الأعمال بها أكثر من الأول . وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التى تختص بالمعاش . فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه [٥٠٧] وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله فى الترف أبلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الأصناف : القاضى مع القاضى ؛ والتاجر مع التاجر ؛ والصانع مع الصانع ؛ والسوق مع السوق ؛ والأمير مع الأمير ؛ والشرطى مع الشرطى .

(١١٢٤) يشير بذلك إلى ما سيذكره فى أول الفصل الخامس (حسب اصطلاحه هو ، والباب الخامس حسب اصطلاحنا . — انظر الفصل الأول من الباب الخامس) . ويظهر أن هذا الباب الأخير كان متقدماً على الباب الذى نحن فيه ، ولذلك أحال عليه على أنه بحث قد فرغ منه ؛ ثم رتب المقدمة ترتيباً آخر بدون أن يغير هذه العبارة .

واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بِجَايَة [٢١٥ج] وتِلِمْسان [٨٤٩] وسَبْتَة [٣٢١ب] تجد بينهما بونًا كثيرًا على الجملة ، ثم على الخصوصيات . فحال القاضى بفاس أوسع من حال القاضى بتِلِمْسان ، وهكذا كل صنف مع صنف أهله . وكذا أيضًا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر ، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما ، إلى أن تنتهى إلى المداشر [١١٢٣ب] الذين اعتمالهم فى ضروريات معاشهم فقط ، ويقصرون عنها . وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها ، فكأنها كلها أسواق للأعمال . والخرج فى كل سوق على نسبته . فالقاضى بفاس دخله كِفاء [٩٦١] خرجه ، وكذا القاضى بتِلِمْسان . وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم . وهما بفاس أكثر لِنَفاق [٤٤] سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف ، فالأحوال أضخم . ثم كذا حال وهران وقُسَنْطينة [٢١٥د] والجزائر وبَسْكَرَة [٢١٥هـ] حتى تنتهى كما قلناه إلى الأمصار التى لا توفى أعمالها بضروراتها ، ولا تعد فى الأمصار إذ هى من قبيل القرى والمداشر [١١٢٣ب] . فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال ، متقاربين فى الفقر والخَصَاصة [٩٦٤] لما أن أعمالهم لا تفى بضروراتهم ، ولا يفضل ما يتأثلونه [٤٧٥ب] كسبًا فلا تنمو مكاسبهم ، وهم لذلك مساكين محاويج إلا فى الأقل النادر .

واعتبر ذلك حتى فى أحوال الفقراء والسُّؤَّال . فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتِلِمْسان أو وهران . ولقد شاهدت بفاس السُّؤَّال يسألون أيام الأضاحى أثمان ضحاياهم ، ورأيتهم يسألون كثيرًا من أحوال الترف واقتراح المآكل ، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون ، كالغربال والآنية . ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستُنكر وعُنِّف وزجر .

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر (١١٢٥) من الترف والغنى

(١١٢٥) كتب هذا ابن خلدون قبل مجيئه إلى مصر ، ولم يغيره فى تعديله للمقدمة بعد قدومه إليها (انظر ما كتبناه فى هذا الموضوع فى تمهيدنا المقدمة صفحات ١٦١ — ١٦٥) .

فى عوائدهم ما يقضى منه العجب ، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى الثُّقْلَة[١١٢٦] إلى مصر لذلك ، لما يبلغهم من أن شأن الرَّفْه[٥٠٧] بمصر أعظم من غيرها . ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم ، وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار . وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التى لديك ، فعظمت لذلك أحوالهم.

وأما حال الدخل والخرج فمتكافىء فى جميع الأمصار ، ومتى عظم الدخل عظم الخرج و بالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر .

كل شىء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران ، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه . ومثِّلْهُ بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها فى هِجْرانها[١١٢٧] أو غِشْيانها[١١٢٨] . فإن بيوت أهل النِّعَم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بثر الحبوب وسواقط الفتات ، فيزدحم عليها غواشى[١١٢٨] النمل والخِشاشِ[١١٢٩] ويُحلِّقُ فوقها عصائب[١١٣٠] الطيور حتى

(١١٢٦) « الثُّقْلة بالضم الانتقال » (القاموس) . وقد حرفت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة . ففى «ل» و «م» : « ينزعون من الثقلة » ، وفى « دار الكتاب اللبنانى » : « ينزعون من النقلة » .

(١١٢٧) « هجره هَجْرا وهِجْرانا بالكسر صرمه » (القاموس) .

(١١٢٨) « غَشِيه من باب تعب جاءه والاسم الغِشْيان بالكسر » (المصباح) . « والغاشية ... السُّؤَّال يأتونك والزوار والأصدقاء ينتابونك والجمع الغواشى » (القاموس) .

(١١٢٩) « الخِشاش بالكسر ما لا دمغ له من دواب الأرض ومن الطير » (القاموس) . « خَشاش الأرض وزان كلام وكسر الأول لغة دوابها الواحدة خَشَاشة وهى الحشرة والهامة » (المصباح) .

(١١٣٠) « العِصابة الجماعة من الناس والخيل والطير ، والجمع عصائب » (المصباح) .

تروح بِطاناً[١١٣١] وتمتلىء شِبَعاً ورِيًّا . وبيوت أهل الخَصاصة[٩٦٤] والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر ، ولا تأوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولاهرة . كما قال الشاعر :

تسقط الطير حيث يُلْتقَطُ الحَبُّ وتُغْشَى[١١٢٨] منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى فى ذلك ، واعتبر غاشية[١١٢٨] الأناسى بغاشية العجم من الحيوانات ، وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الأكثر لوجود أمثالها لديهم . واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو غنى عن العالمين .

١٢ — فصل فى أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس ، فمنها الضرورى وهى الأقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ، ومنها الحاجى[٤٣٩ب] والكمالى مثل الأُدْم[٢٤٧] والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى . فإذا استبحر[١١٣١ب] المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضرورى من القوت وما فى معناه ، وغلت أسعار الكمالى من الأُدم[٢٤٧] والفواكه وما يتبعها . وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس .

والسبب فى ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت ، فتتوفر الدواعى على اتخاذها ، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم

(١١٣١) « بَطِن من باب طرب عظم بطنه من الشبع » واسم الفاعل باطن وجمعه بطان ، المقابلة بطونها من الشبع . وضدها الخِمَاص وهى الجياع . وفى الأثر : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً » .

(١١٣١ب) « استبحر اتسع وانبسط كتبحر » (القاموس) .

اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم فى ذلك المصر أو فيما قرب منه ، لا بد من ذلك . وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خَلَّةَ[٢٦١] كثيرين من أهل ذلك المصر ، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك ، فترخص أسعارها فى الغالب ، إلا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماوية. ولولا احتكار الناس لها لما يُتَوَقَّعُ من تلك الآفات لبُذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران. وأما سائر المرافق من الأُدْم[٢٤٧] والفواكه وما إليها ، فانها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ، ولا الكثير منهم . ثم إن المصر إذا كان مستبحراً[١١٣١ب] موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها ، كلٌّ بحسب حاله ، فيقصر[٥٥٧] الموجود منها عن الحاجات قصوراً بالغاً ، ويكثر المستامون[٣٠] لها وهى قليلة فى نفسها ، فتزدحم أهل الأغراض ، ويبذل أهل الرَّفه والترف أثمانها بإسراف فى الغلاء ، لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم ، فيقع فيها الغلاء كما تراه .

وأما الصنائع والأعمال أيضاً فى الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة : الأول كثرة الحاجة لمكان الترف فى المصر بكثرة عمرانه ؛ والثانى اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وامتهانِ أنفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة أقواتها[(١١٣٢)] ؛ والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع فى مهنهم ، فيبذلون فى ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم ، وتكثر نفقات أهل المصر فى ذلك .

(١١٣٢) أى إن العمال يعتزون بما يؤدونه من خدمة وما يبذلونه من جهد ، ولا يجدون حاجة كبيرة إلى كثرة الكدح لسهولة العيش فى المدينة لكثرة أقواتها. هذا وفى جميع النسخ المتداولة « لخدمتهم » باللام ، والصحيح « بخدمتهم » بالباء ، كما لا يخفى .

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها ، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت ؛ فيتمسكون بما يحصل منه فى أيديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ، ويغلو ثمنه على مستامه[٣٠] . وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضا حاجه لقلة الساكن وضعف الأحوال ، فلا تَنْفُقُ[٤٤] لديهم سوقه ، فيختص بالرخص فى سعره .

وقد يدخل أيضاً فى قيمة الأقوات قيمة ما يُفْرَضُ[(١١٣٣)] عليها من المكوس والمغارم للسلطان فى الأسواق وأبواب المصر ، وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم[(١١٣٤)] ، ولذلك كانت الأسعار فى الأمصار أغلى من الأسعار فى البادية ، إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة ؛ وكثرتها فى الأمصار لا سيما فى آخر الدولة . وقد تدخل أيضاً فى قيمة الأقوات قيمة علاجها فى الفلح ، ويحافظ على ذلك فى أسعارها ، كما وقع بالأندلس لهذا العهد . وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف[٨٠٦] البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النَّكِدة[(١١٣٤ب)] النبات ، وملكوا عليهم الأرض الزاكية[٢٧٩] والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفُدُن[٢٥٤] لإصلاح نباتها وفلاحها ، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة ، وصارت فى فلاحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم ، واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم

(١١٣٣) فى جميع النسخ المتداولة « يعرض » بالعين ، وهو تحريف كما لا يخفى .

(١١٣٤) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة تحريفاً كبيراً إلى هذه الصيغة : « من المكوس والمغارم للسلطان فى الأسواق وأبواب الحفر والحياة فى منافع وصولها عن البيوعات لما يعسهم » . — وقد عثرنا عليها صحيحة مستقيمة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١١٣٤ب) « نَكِدَ نَكَدًا من باب تعب فهو نَكِدٌ تعسر ، ونَكِد العيش نَكَدًا اشتد » (المصباح) . ومنه قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خَبُثَ لا يخرج إلا نَكِدًا » (آية ٥٨ من سورة الأعراف ، وهى سورة ٧) .

النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك[١١٣٥] . ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم ، وليس كذلك ، فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه ، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدّان[٣٥٤] أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطُّرّاء على الوطن من الغزاة المجاهدين ؛ ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعَوْلة[١١٣٦] وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع . وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ماذكرناه . ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء[٢٢٩] منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته عموما ، فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم . والله مقدر الليل والنهار ، وهو الواحد القهار لا رب سواه .

١٣ — فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قد مناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف ، وتُعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات ، وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة ، والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف ، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتُعتبر في قيم المبيعات ، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه ،

(١١٣٥) العبارة الأخيرة غير واضحة المعنى ، ولا بد أن يكون هنا تحريف أو سقط . ولكن المعنى العام واضح ، وهو أن هذا الغلاء قد أخذ يظهر منذ اضطر المسلمون إلى الجلاء عن المواطن الخصبة .

(١١٣٦) « عال عياله عَوْلا كفاهم ومانهم ، والعول كل ما عالك والمستعان به وقوت العيال » (القاموس)

فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم .

والبدوى لم يكن دخله كثيراً إذا كان ساكناً بمكان كاسد الأسواق فى الأعمال التى هى سبب الكسب ، فلم يتأثل ٤٧٥ب كسباً ولا مالا ، فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته ، وهو فى بدوه يسد خلّته [٢٦١] بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه ، فلا يضطر إلى المال . وكل من يتشوف إلى المصر وسكناه من أهل البادية فسريعاً ما يظهر عجزه و يفتضح فى استيطانه ، إلا من يُقدِّم منهم ثأثل ٤٧٥ب المال و يحصل له منه فوق الحاجة ، و يجرى إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف ، فحينئذ ينتقل إلى المصر و ينتظم حاله مع أحوال أهله فى عوائدهم وترفهم . وهكذا شأن بداية عمران الأمصار . والله بكل شىء محيط .

١٤ — فصل فى أن الأقطار فى اختلاف أحوالها بالرفه [٥٠٧]

والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما نوفر [٦٠] عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم فى جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم . والسبب فى ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتى ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات فى حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته ، فيعود على الناس كسباً يتأثلونه ٤٧٥ب ، حسبما نذكر ذلك فى فصل المعاش و بيان الرزق والكسب ، فيتزيد الرَّفْه [٥٠٧] لذلك وتتسع الأحوال و يجىء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنَفَاق [٤٤] الأسواق فيكثر مالها و يشمخ سلطانها ، وتتفنن فى اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار .

واعتبر ذلك بأقطار المشرق ؛ مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومى ، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم ، وعظمت دولتهم ، وتعددت مدنهم وحواضرهم ، وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذى نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب فى رَفْههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف . وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم . وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين ، فإنه يبلغنا عنهم فى باب الغنى والرَّفْه غرائب تسير الركبان بحديثها ، وربما تُتلقى بالإنكار فى غالب الأمر ، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة فى أموالهم ، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم ، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم ، وليس كذلك . فمعدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهى إلى المغرب أقرب . وجميع ما فى أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة . فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ، ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة .

ولقد ذهب المنجمون ، لما رأوا مثل ذلك ، واستغربوا ما فى المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها ، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام فى مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً فى مواليد أهل المغرب . وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه . وهم إنما أعطوا فى ذلك السبب النجومى ، وبقى عليهم أن يعطوا السبب الأرضى ، وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصها بأرض المشرق وأقطاره . وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التى هى سببه . فلذلك اختص المشرق بالرَّفْه من بين الآفاق ، لا أن ذلك لمجرد الأثر النجومى . فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك ، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه .

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر إفريقية ٤٩ ب و برقة لما خف ساكنها

وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة[٩٦٤] ، وضعفت جباياتها، فقلت أموال دولها، بعد أن كانت دول الشيعة[٦١٧] وصنهاجة بها على ما بلغك من الرّفْه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال فى نفقاتهم وأعْطياتهم[٤٨٠] ، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته ، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب فى سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لأرزاق الجنود وأعْطِياتهم[٤٨٠] ونفقات الغزاة .

وقطر المغرب وإن كان فى القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك ، وكانت أحواله فى دول الموحدين[٩٣٦] متسعة وجباياته موفورة . وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه ، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ، ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً محسوساً ، وكاد أن يلحق فى أحواله بمثل أحوال إفريقية[٤٩ ب] ، بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومى إلى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الأقصى و برقة . وهى اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى ، إلا ما هو منها بِسِيف[٨٠٦] البحر أو ما يقارب به من التلول . والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

١٥ — فصل فى تأثل العقار والضياع

فى الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها[٣٨٩ ب]

اعلم أن تأثل[٤٧٥ ب] العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ، ولا فى عصر واحد ؛ إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التى تخرج قيمها عن الحد ، ولو بلغت أحوالهم فى الرّفْه[٥٠٧] ما عسى أن تبلغ . و إنما يكون ملكهم وتأثلهم[٤٧٥ ب] لها تدريجاً إما بالوراثة من آبائه وذوى رحمه ، حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك ، أو أن يكون بِحِوالة[٩٢١] الأسواق ؛ فإن العقار فى آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء

الحامية وخرق السياج وتداعى المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشى الأحوال فترخص قيمها ، وتُتَمَلَّك بالأثمان اليسيرة ، وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر ، وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية ، وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل معها الغبطة فى العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ ، فتعظم قيمها ، ويكون لها خطر لم يكن فى الأول . وهذا معنى الحِوالة[٩٢١] فيها ، ويصبح مالكها من أغنى أهل المصر ، وليس ذلك بسعيه واكتسابه ، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك .

وأما فوائد العقار والضياع فهى غير كافية لمالكها فى حاجات معاشه ، إذ هى لا تفى بعوائد الترف وأسبابه ، وإنما هى فى الغالب لسد الخَلَّة[٢٦١] وضرورة المعاش . والذى سمعناه من مَشْيَخَة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب ، فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم . وربما يكون من الوُلْد من يعجز عن التكسب لضعف فى بدنه أو آفة فى عقله المعاشى ، فيكون ذلك العقار قِوَاماً(١١٣٢) لحاله . هذا قصد المترفين فى اقتنائه . وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحِوالة[٩٢١] الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه ، والعالى فى جنسه وقيمته فى المصر . إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه فى الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب . والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم .

(١١٣٢) قوام الأمر نظامه وعماده ، يقال فلان قوام أهل بيته وقيام أهل بيته أى هو الذى يقيم شأنهم . وقوام الأمر ملاكه الذى يقوم به ، وقد يفتح . (القاموس والمصباح) .

obeikandi.com

١٦ — فصل فى حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة[٣٨٩ب]

وذلك أن الحضرى إذا عظم تموله ، وكثر للعقار والضياع تأثله[٤٧٥ب] وأصبح أغنى أهل المصر ، ورمقته العيون بذلك ، وانفسحت أحواله فى الترف والعوائد ، زاحم عليها الأمراء وغصّوا[٩٩] به . ولما فى طباع البشر من العدوان ، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده و ينافسونه فيه ، و يتحيلون على ذلك بكل ممكن ، حتى يُحَصِّلوه[١١٣٨] فى رِبْقَة حكم سلطانى ، وسبب من المؤاخذة ظاهر يتنزع به ماله . وأكثر الأحكام السلطانية جائرة فى الغالب ؛ إذ العدل المحض إنما هو فى الخلافة الشرعية وهى قليلة اللبث . قال صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تعود ملكا عضوضاً[٨٩٧] » . فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة فى العمران من حامية تذود عنه ، وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان ؛ ليستظل بظلها ، و يرتع فى أمنها من طوارق التعدى . و إن لم يكن له ذلك أصبح نهباً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام . « والله يحكم لا معقب لحكمه[٤٥٠] » .

١٧ — فصل فى أن الحضارة فى الأمصار من قِبَل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب فى ذلك أن الحضارة هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرَّفْه[٥٠٧] وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة

(١١٣٨) حصل الشىء حصولا ثبت ووقع ، وحصّله أثبته وأوقعه . هذا وفى جميع النسخ حتى يحصلونه ، والصواب حتى يحصلوه ، لأن حتى هنا للغاية فتنصب ما بعدها . — وأصل الرِّبْقة (بكسر الراء وفتحها) العُروة من الحبل يشد به البَهْم . والمعنى حتى يوقعوه فى مأخذ ينطبق عليه فيه حكم سلطانى ويبرر فى الظاهر مصادرة أمواله .

تفاوتاً غير منحصر . وتقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها ، فتكون بمنزلة الصنائع . ويحتاج كل صنف منها إلى القَوَمَة عليه والمهرة فيه . وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها ، ويتلوَّنُ ذلك الجيل بها . ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حَذَقَ أولئك الصناع فى صناعتهم ، ومهروا فى معرفتها . والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً . وأكثر ما يقع ذلك فى الأمصار لاستبحار[١١٣١ب] العمران وكثرة الرِّفْه[٥٠٧] فى أهلها . وذلك كله إنما يجىء من قِبَل الدولة . لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها فى بطانتها ورجالها ، وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال . فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها فى أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر ، وهم الأكثر . فتعظم لذلك ثروتهم ، ويكثر غناهم ، وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه ، وتستحكم لديهم الصنائع فى سائر فنونه . وهذه هى الحضارة .

ولهذا تجد الأمصار التى فى القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة فى جميع مذاهبها ، بخلاف المدن المتوسطة فى الأقطار التى هى مركز الدولة ومقرها . وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم ، كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهى إلى الجفوف على البعد . وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم[١١٣٨ب] . فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه ، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة .

ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً .

(١١٣٨ب) تقدم ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من الباب الثالث (انظر ص ٦٧٩) .

واعتبر ذلك فى اليهود لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم ، وحذَقُوا فى أحوال المعاش وعوائده والتفنن فى صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل ؛ حتى إنها لتؤخذ عنهم فى الغالب إلى اليوم .

ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها فى الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة ، فكانوا فى غاية الحضارة . وكذلك أيضا القبط دام ملكهم فى الخليقة ثلاثة آلاف من السنين ، فرسخت عوائد الحضارة فى بلدهم مصر . وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل . فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة . وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافاً من السنين ، وأعقبهم ملك مصر . وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين . فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر .

وكذا أيضا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط . ثم ما أعقبها من ملك بنى أمية آلافاً من السنين ، وكلتا الدولتين عظيمة ، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت .

وأما إفريقية ٩٤ب والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم . إنما قطع الروم الإفرنجة إلى إفْريقَيَة البحر وملكوا الساحل ؛ وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة ، فكانوا على قلعة وأوْفاز(١١٣٩) . وأهل المغرب

(١١٣٩) من معانى الوَفْز المكان المرتفع . والقلعة الحصن المرتفع والممتنع على الجبل (من القاموس) . والمعنى أن الغزاة لإفريقية من الإفرنج لم يكن ملكهم مستقراً ولم يكن عاماً ، وإنما ملكوا السواحل فقط وتحصنوا بالقلاع والأوفاز . — ويغلب على الظن أن هنا تحريفاً وأن صوابه «فكانوا على القلعة والقيروان» وكلتاهما مدينة بإفريقية على الساحل . وتسمى =

obeikandl.com

لم تجاوزهم (١١٤٠) دولة ، وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر. ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلا أول الإسلام ، وكانوا لذلك العهد فى طور البداوة ، ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب لم يجد بها من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه ، إذ كانوا برابر منغمسين فى البداوة . ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المطغرى (١١٤٠ب) أيام هشام بن عبد الملك ، ولم يراجعوا أمر العرب بعد ، واستقلوا بأمر أنفسهم ، وإن بايعوا لأدريس فلا تعد دولته فيهم عربية ، لأن البرابر هم الذين تولوها ، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد (١١٤١) ، وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشىء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه ، وكثرة عمران القيروان . وورث ذلك عنهم كُتامة ثم صنهاجة من بعدهم ؛ وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة . وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها ، وبقى أثر خفى من حضارة العمران فيها . وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف ، فتجد له من الحضارة فى شؤون منزله وعوائد أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضرى

= الأولى كذلك قلعة أبى طويل . ويؤيد هذا ما سيذكره بعد بضعة أسطر إذ يقول : « وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف » . — هذا وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « وكانوا على قلعة وأوفار » بالراء . والكلمة على هذه الصورة مجردة من الدلالة .

(١١٤٠) فى جميع النسخ « تجاورهم » بالراء ، وهو تحريف . والصحيح « تجاوزهم » بالزاى . ويستخدم ابن خلدون فعل جاز ومزيداته فى شئون الغزو ، بمعنى وصل إلى البلد وغزاه ومن ذلك قوله « ... مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب ، أجازوا فى الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها » (انظر ص ٦٢٧) . واستخدام الفعل فى هذا المعنى استخدام عربى صحيح (انظر تعليق ٨٠٨) .

(١١٤٠ب) فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « ميسرة المطغرى » بالغين .

(١١٤١) التركيب ركيك ، والمعنى : وهم وإن كانوا قد بايعوا إدريس الذى تنحدر أسرته من أصل عربى ، فإن دولته فيهم لم تكن عربية ، لأن البربر هم الذين تولوها ... الخ .

البصير بها . وكذا فى أكثر أمصار إفريقية . وليس ذلك فى المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة[٦١٧] وصنهاجة[٥] . وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين[٩٣٦] من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ؛ ومعظمها من أهل الأندلس . ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها و بأمصارها من الحضارة آثاراً ؛ ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها . فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفى[١٤٦] عليه الخلاء ، ورجع على أعقابه ، وعاد البربر بالمغرب الى أديانهم من البداوة والخشونة . وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم .

فتفطن لهذا السر فإنه خفى عن الناس ، واعلم أنها أمور متناسبة وهى حال الدولة فى القوة والضعف ، وكثرة الأمة أو الجيل ، وعظم المدينة أو المصر ، وكثرة النعمة واليسار . وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران ، وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الاحوال ، وأموال الجباية عائدة عليهم ، و يسارهم فى الغالب من أسواقهم ومتاجرهم . واذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله فى أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه ؛ فهى ذاهبة عنهم فى الجباية والخراج عائدة عليهم فى العطاء . فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا ، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة . وأصله كله العمران وكثرته . فاعتبره وتأمله فى الدول تجده . « والله يحكم لا معقب لحكمه »[٤٥٠] .

١٨ — فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده[٣٨٩ب]

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية[(١١٤٢)] ، وأن الحضارة غاية للبداوة[(١١٤٣)] ، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا.[(١١٤٤)] وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للانسان غاية فى تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعية عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط . فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضا كذلك . لأنه غاية لا مزيد وراءها . وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها . والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله ، والكلف[٦٨] بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل . وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها . وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها : أما دينها فلا ستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها ؛ وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها .

وبيانه أن المصر بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات أهله . والحضارة

(١١٤٢) عرض لذلك فى الفصل السابع عشر من الباب الثانى (صفحتى ٤٣٩ ، ٤٤٠) .

(١١٤٣) عرض لذلك فى الفصلين الأول والثالث من الباب الثانى (صفحات ٤٠٧ — ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤) .

(١١٤٤) عرض لذلك فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث (صفحات ٤٨٥ — ٤٨٨).

obeikandi.com

تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل. وقد كنا قدمنا[١١٤٥] أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع المكوس فى الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم؛ والمكوس تعود على البياعات بالغلاء؛ لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى فى مؤونة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات وأثمانها؛ فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد[٢٩٣] إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة[٤٨١] عن ذلك، لما[٥٨١] ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون فى الإملاق[٩١٧] والخصاصة[٩٦٤] ويغلب عليهم الفقر، ويقل المستامون[٢٠] للمبايع، فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة. وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف؛ وهذه مفسدات فى المدينة على العموم فى الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له. فتجدهم أجرياء[١١٤٦] على الكذب والمقامرة والغش والخلابة[١١٤٧] والسرقة والفجور فى الأيمان والربا فى البياعات.

(١١٤٥) تقدم ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الباب (صفحات ٨٦٣ — ٨٦٦).

(١١٤٦) «الجُرْأة كالجرعة الشجاعة، وقد جَرُؤ كَكَرُم فهو جرىء وجمعه أجراء» (القاموس) ولم يذكر فى الجمع أجرياء.

(١١٤٧) «خلبه كَخَلْباً وخِلاباً وخِلابة بكسرهما خدعه كاختلبه وخالبه» (القاموس).

ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة فى الخوض فيه ، حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الإقذاع بذلك . وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة ، يدفعون بذلك ماعساه يناهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله . ويموج بحر المدينة بالسِّفْلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ، ممن أهمل عن التأديب ، وغلب عليه خلق الجوارى ، وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات . وذلك أن الناس بشر متماثلون ؛ وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل . فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأى وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكاء[٢٧٩] نسبه ولا طيب منبته . ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين فى الغُمار[(١١٤٨)] منتحلين للحرف الدنية فى معاشهم بما[٤٤٥] فسد من أخلاقهم ، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة .

وإذا كثر ذلك فى المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُتْرَفيها فَفَسَقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً »[(١١٤٩)] . ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم أحوالهم . وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت . وهذا معنى ما يقول بعض أهل الخواص : « إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب » ؛

(١١٤٨) غُمار الناس وغُمارتهم بضم الغين وفتحها فيهما وغَمْرتهم وغَمْرهم وغَمَرهم جماعتهم وانبوههم (من القاموس) ويطلق فى الغالب على الدهماء والطبقات الدنيا من الناس .

(١١٤٩) آية ١٦ من سورة الإسراء (وهى سورة ١٧) .

حتى إن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ؛ وليس المراد ذلك ، ولا أنه خاصية فى النارنج ، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لاطعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة ، إذ لا يقصد بها فى البساتين إلا أشكالها فقط ، ولا تغرس إلا بعد التفنن فى مذاهب الترف ، وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك فى الدِّفْلَى (١١٥٠) وهو من هذا الباب ؛ إذ الدِّفْلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بِنَوْرها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف .

ومن مفاسد الحضارة الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن فى شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن فى شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضى ذلك إلى فساد النوع : إما بواسطة اختلاط الأنساب كما فى الزنا فيجهل كل واحد ابنه إذ هو لغير رِشْدَةٍ (١١٥١) لأن المياه مختلطة فى الأرحام ، فتُفْقَد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ، ويؤدى ذلك إلى انقطاع النوع ؛ أو يكون فساد النوع [كما فى اللواط المؤدى إلى عدم النسل رأساً وهو أشد فى فساد النوع] (١١٥١ب) إذ هو يؤدى إلى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدى إلى عدم (١١٥٢) ما يوجد منه . ولذلك كان

(١١٥٠) « الدِّفْل بالكسر وكذكرى نبت مرّ قتّال زهره كالورد الأحمر » (القاموس) .

(١١٥١) يقال وُلِد لِرِشْدَةٍ بكسر الراء والفتح لغة أو هو لِرِشْدَةٍ أى إنه صحيح النسب ، ضد وُلِدَ لِزِنْيَةٍ أو هو لِزِنْيَةٍ (من القاموس والمصباح) .

(١١٥١ب) الموضوع بين هذين القوسين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة ، وقد عثرنا عليه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١١٥٢) هكذا فى جميع النسخ . ولا بد أن يكون هنا سقط ، وتقديره : « والزنا يؤدى إلى عدم معرفة أنساب ما يوجد منه » .

مذهب مالك رحمه الله فى اللواط[١١٥٣] أظهر من مذهب غيره[١١٥٤] ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح .

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هى الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهَرَم كالأعمار الطبيعية للحيوانات .

بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هى عين الفساد . لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى فى ذلك. والحضرى لا يقدر على مباشرته حاجاته، إما عجزاً لما حصل له من الدعة ، أو ترفعاً لما حصل له من المَرْبَى فى النعيم والترف ، وكلا الأمرين ذميم . وكذلك لا يقدر على دفع المضار بما فقد من خلق البأس بالترف والمربى فى قهر التأدب والتعليم ؛ فهو لذلك عيال على الحامية التى تدافع عنه . ثم هو فاسد أيضاً فى دينه غالبا بما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلوثت به النفس فى ملكاتها كما قررناه ، إلا فى الأقل النادر . وإذا فسد الإنسان فى قدرته ثم فى أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة . وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون فى جند السلطان إلى البداوة والخشونة أنفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها . وهذا موجود فى كل دولة][١١٥٤ب] .

(١١٥٣) يجعل الإمام مالك اللواط فى حكم الزنا ، بل يسميه زنا ، ويوقع على مقترفه حد الزنا سواء بسواء (انظر الجزء الرابع من حاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدردير على متن خليل ، صفحات ٣١٣ وتوابعها ، طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٧) .

(١١٥٤) كأبى حنيفة مثلا الذى يذهب إلى أنه لا يوقع فيه حد الزنا وإنما يجب فيه التعزير — وقد خالفه فى ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد فذهبا إلى ما ذهب إليه مالك من أن حكمه حكم الزنا (انظر الميدانى على القدورى ص ٢٩٨ طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٧) .

(١١٥٤ب) الموضوع بين قوسين هو نص هذه العبارة كما وردت فى النسخة الخديوية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت هذه العبارة محرفة تحريفاً كبيراً فى جميع النسخ المتداولة ؛ فجاءت فيها على هذا الوضع : « كذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعى فى ذلك . =

فقد تبين أن الحضارة هى سن الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة . والله سبحانه وتعالى « كلَّ يومٍ هو فى شأنٍ »(١١٥٥) لا يشغله شأن عن شأن .

١٩ — فصل فى أن الأمصار التى تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا فى العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذى يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهى فى انتقاضه إلى الخراب . ولا يكاد ذلك يتخلف . والسبب فيه أمور :

الأول أن الدوله لا بد فى أولها من البداوة المقتضية للتجافى عن أموال الناس والبعد عن التحذلق . ويدعوذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التى منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف . فإذا صار المصر الذى كان كرسياً للملك فى مَلَكَة[٧٠] هذه الدولة المتجددة ، ونقصت أحوال الترف فيها ، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر ، لأن الرعايا تبع للدولة ، فيرجعون إلى خلق الدولة ، إما طوعا لما فى طباع البشر من تقليد متبوعهم ، أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف فى جميع الأحوال ، وقلة الفوائد التى هى مادة العوائد ، فتقصر لذلك حضارة المصر ، ويذهب منه كثير من عوائد الترف ، وهو معنى ما نقول فى خراب المصر .

= والحضرى بما قد فقد من خلق الإنسان بالترف والنعيم فى قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التى تدافع عنه . ثم هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه العوائد وطاعتها ، وما تلونت به النفس من مكانتها كما قررناه ؛ إلا فى الأقل النادر . وإذا فسد الإنسان فى قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة . وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين فى كل دولة » .

(١١٥٥) الفقرة الأخيرة من اية ٢٩ من سورة الرحمن ، وهى سورة ٥٥ .

الأمر الثانى أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغَلَب ، والغلب إنما يكون بعد العداوة والحروب ، والعداوة تقتضى منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما عن الأخرى فى العوائد والأحوال، وغَلَب أحد المتنافيين يذهب بالمنافى الآخر ، فتكون أحوال الدولة السابقة مُنْكَرَةً عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة، وخصوصاً أحوال الترف، فتفقد فى عرفهم بنكير الدولة لها، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف ، فتكون عنها حضارة مستأنفة . وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها . وهو معنى اختلال العمران فى المصر

الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم. وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعاً للأول ، وأمصاره تابعة لأمصار الأول ، واتسع نطاق الملك عليهم ، ولا بد من توسط الكرسى تخوم الممالك التى للدولة ، لأنه شبه المركز للنطاق ، فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الأول ، وتهوى أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان ، فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسىّ الأول ، والحضارة إنما هى توفر العمران كما قدمناه ، فتنتقص حضارته وتمدنه ، وهو معنى اختلاله . وهذا كما وقع للسلجوقية فى عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان ، وللعرب قبلهم فى العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ، ولبنى العباس فى العدول عن دمشق إلى بغداد ، ولبنى مَرِين [٢٨٠] بالمغرب فى العدول عن مراكش إلى فاس . وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسى فى مصر يخل بعمران الكرسى الأول .

الأمر الرابع أن الدولة المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم (١١٥٦)

(١١٥٦) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة على هذا الوضع : « إن الدولة الثانية لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم ... الخ » .

على الدولة . وأكثرُ أهلِ المصرِ الكرسيِّ أشياعُ الدولة ، إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر ، لأن لهم فى الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم ، بل أكثرهم ناشىء فى الدولة فهم شيعة لها ، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة . وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة . فتنقلهم من مصرِ الكرسيِّ إلى وطنها المتمكن فى مَلَكَتِها[٧٠] . فبعضهم على نوع التغريب والحبس ، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدى إلى النُّفْرة ، حتى لا يبقى فى مصرِ الكرسيِّ إلا الباعة والهَمَل[١٣٥] من أهل الفلح والعِيارَة(١١٥٧) وسواد العامة ، وتنزل مكانهم من حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر(١١٥٨) . وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه . ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر فى ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة . وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف ، وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه ، فيخرب ذلك البيت ، ثم يعيد بناءه ثانياً .

وقد وقع من ذلك كثير فى الأمصار التى هى كراسى للملك وشاهدناه وعلمناه. « والله يقدر الليل والنهار[٤٢٠] » .

والسبب الطبيعى الأول فى ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها . وقد تقرر فى علوم الحكمة

(١١٥٧) « عار الرجلُ ذهب وجاء . . . والاسم العِيارة » . فلعله يقصد الذين يكثرون من الذهاب والمجىء والتسكع فى الطرقات بلا عمل ولا صناعة . أو لعل الكلمة محرفة .

(١١٥٨) فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « وتنزل مكانهم من حاميتها وأشياعها من تشد به المصر » . وفى النسخ المتداولة : « وينزل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر » . والأولى مُحرَّف فيها الفعل ، والثانية سقط منها حرف الجر . والصحيح ما أثبتناه .

أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر . فالدولة دون العمران لا تتصور ؛ والعمران دون الدولة والملك متعذر ، لما فى طباع البشر من العدوان الداعى إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك ، إمّا الشرعية أو الملكية ، وهو معنى الدولة . وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر فى اختلال الآخر ، كما أن عدمه مؤثر فى عدمه . والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم ، أو بنى أمية أو بنى العباس كذلك . وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد ، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض ، فلا تؤثر كثير اختلال . لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة فى مادة العمران إنما هى العصبية والشوكة ، وهى مستمرة على أشخاص الدولة . فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة فى العمران ، ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

٢٠ — فصل فى اختصاص بعض الأمصار

ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعى بعضها بعضاً لما فى طبيعة العمران من التعاون . وما يُستدعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصر ، فيقومون عليه ويستبصرون فى صناعته ، ويختصون بوظيفته ، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه ، لعموم البلوى به فى المصر والحاجة إليه . وما لا يُستدعى فى المصر يكون غُفْلا إذ لا فائدة لمنتحله فى الاحتراف به . وما يُستدعى من ذلك لضرورة المعاش ، فيوجد فى كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها . وما يُستدعى لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد فى المدن المستبحرة ١١٣١ب فى العمارة والآخذة فى عوائد

الترف والحضارة ، مثل الزَّجَّاج(١١٥٨ب) والصائغ والدَّهَّان(١١٥٨ج) والطباخ والصفار(١١٥٨ د) والفراش والدَّبَّاج(١١٥٨ هـ) وأمثال هذه ، وهى متفاوتة . وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع ، فتوجد بذلك المصر دون غيره . ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد فى الأمصار المستحضرة المستبحرة١١٣١ب العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم . ولذلك لا تكون فى المدن المتوسطة . وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجرى أحوالها ، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس ، فسرعان ما تهجر وتخرب ، وتفر عنها القَوَمَةُ لقلة فائدتهم ومعاشهم منها . والله يقبض ويبسط .

٢١ — فصل فى وجود العصبية فى الأمصار

وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتصال موجود فى طباع البشر ، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد ؛ إلا أنه كما قدمناه(١١٥٩) أضعف مما يكون بالنسب ، وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب . وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصِّهْر(١١٦٠) ، يجذب

(١١٥٨ب) الزَّجَّاج صانع الزجاج والمشتغل به .

(١١٥٨ج) الدَّهَّان المشتغل بالدُّهن وبائعه أو من يدهن البيوت .

(١١٥٨د) الصَّفَّار صانع الصُّفْر ، وهو نوع من النحاس ، والمشتغل به .

(١١٥٨هـ) الدَّبَّاج النقاش من الدَّبْج وهو النقش ، هكذا وردت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . ولعلها محرفة عن الدَّبَّاغ وهو الذى يدبغ الجلود . — وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة « الدَّبَّاح » وهذه الكلمة لا معنى لها هنا .

(١١٥٩) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الثامن من الباب الثانى « فصل فى أن العصبية إنما تكون بالنسب وما فى معناه » (انظر صفحتى ٤٢٤ ، ٤٢٥) .

(١١٦٠) الصِّهْر قرابة المصاهرة ، وهى قرابة أهل الزوجة للزوج وأهل الزوج للزوجة ، والصِّهْر أيضاً هؤلاء الأقرباء أنفسهم ، ويقال لهم كذلك أصهار (من القاموس والمختار) .

بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لُحَماً لُحَماً (١١٦١) وقرابة قرابة، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مِثْلَهُ، فيفترقون شيعاً وعصائب ١١٣٠. فإذا نزل الهَرَمْ بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم، والنظر فى حماية بلدهم، ورجعوا إلى الشورى وتميز العِلْية ٩١ عن السِّفْلَةِ (١١٦٢)، والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرياسة، فتطمح المشيخة (١١٦٣)، لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة، إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالأتباع من الموالى والشيع والأحلاف، ويبذلون ما فى أيديهم للأوغاد والأوشاب؛ فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغَلَبُ لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليقص من أَعِنَّتِهِم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يَخْضِد ١٠٨٨ منهم الشوكات النافذة، ويقلم الأظفار الخادشة، ويستبد بمصره أجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه، فيحدث فى ذلك الملك الأصغر ما يحدث فى الملك الأعظم من عوارض الجِدَّةِ والهَرَمِ.

وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك، فينتحلون بها من الجلوس على السرير (١١٦٤) واتخاذ الآلة (١١٦٥) وإعداد المواكب للسير فى أقطار البلد والتختم

(١١٦١) جمع لُحْمة بضم الميم وهى القرابة.

(١١٦٢) «عِلْيَة الناس جِلَّتهم، وسِفْلَتهم أسافلهم وغوغاؤهم» (القاموس).

(١١٦٣) يجمع الشيخ على شيوخ وأشياخ وشيخان ومشايخ ومَشْيَخَة ... (القاموس).

(١١٦٤) انظر تفسيره فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث صفحة ٦٦٨.

(١١٦٥) انظر تفسيرها فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث صفحات ٦٣٤ — ٦٣٧.

والحسبة[١١٦٦] ، والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل ؛ إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية . وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث .

وقد وقع هذا بإفريقية[٤٩ب] لهذا العهد فى آخر الدولة الحفصية[٩٣٧] لأهل بلاد الجريد[٢١٦] من طرابلس وقابس[١١٦٧] وتوزر[٢١٦] ونفطة[٢١٦] وقفصة[٢١٦] وبسكرة[٢١٥ه] والزاب[٢١٥ا] ، وما إلى ذلك . سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين ، فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة فى الأحكام والجباية ، وأعطوا طاعة معروفة وصفقة مُمْرِضة[١١٦٨] ، وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد ، وهم بمعزل عنه ، وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد ، وحدث فى خلفهم من الغلظة والتجبر مايحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ، ونظموا أنفسهم فى عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة . حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس ، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره فى أخبار الدولة . وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجية[٥٠] ، واستقل بأمصار الجريد[٢١٦] أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين[٩٣٦] وملكهم عبد المؤمن بن على ، ونقلهم كلهم من أمارتهم بها إلى المغرب ،

(١١٦٦) انظر تفسيرها فى الفصل الحادى والثلاثين من الباب الثالث صفحتى ٥٧٦ — ٥٧٧ .

(١١٦٧) قابس كناصر بلد بالمغرب بين طرابلس وصفاقس .

(١١٦٨) من معانى أمرض صار ذا مرض (من القاموس) . فالمعنى صفقة (أى بيعة) غير خالصة ، أى صفقة فى الظاهر صادرة عمن فى قلبه مرض . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « وأعطوا طاعة معروقة (بالقاف) وصفقة مُمْرِضة » . والمعروق العظم المجرد من اللحم ؛ فقد شبه به الطاعة غير المخلصة التى تصدر من اللسان فحسب . — أو لعل فى هاتين الصفتين (معروفة وممرضة) تحريفاً .

ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر فى أخباره . وكذا وقع بسَبْتَة[٢٢١ب] لآخر دولة بنى عبد المؤمن .

وهذا التغلب يكون غالباً فى أهل السَّروات[(١١٦٩)] والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة فى المصر . وقد يحدث التغلب لبعض السِّفْلة[١١٦٣] من الغوغاء والدهماء . وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المَشْيَخَةِ[١١٦٣] والعِلْيَةِ[١١٦٢] إذا كانوا فاقدين للعِصابة[١١٣٠] . والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

٢٢ — فصل فى لغات أهل الامصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها . ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإن كان اللسان العربى المضرى قد فسدت ملكته وتغير إعرابه . والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغَلَب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهى بلسان العرب ، لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربى ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربى من الألسن فى جميع ممالكها . واعتبر ذلك فى نهى عمر رضى الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال إنها خِبٌّ أى مكر وخديعة . فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها فى جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار

(١١٦٩) سَرُوَ كَكَرم فهو سَرِىٌّ وجمعه أسرياء ... والسَّراة اسم جمع وجمعه سروات . والاسم السَّرْو وهو المروءة والرياسة فى شرف . ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاة لهم ولا سَرَاة إذا جُهَّالهم سادوا

obeikandi.com

استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب . وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة.(١١٧٠)

ثم فسد اللسان العربى بمخالطتها فى بعض أحكامه وتغير أواخره ، وإن كان

(١١٧٠) اشتبكت اللغة العربية فى صراع مع كثير من اللغات التى احتكت بها فى البلاد التى فتحها العرب ، والتى اعتنق أهلها الإسلام ، والتى كان لها بالبلاد العرب صلة ما ؛ وكتب لها النصر على بعضها ؛ ولكنها لم تستطع القضاء على بعضها الآخر. ولهذا كله أسباب وعوامل وقوانين تختلف كثيرا عما ذكره هنا ابن خلدون ، ويضيق المقام عن بيانها . وقد تكلمنا عليها بتفصيل فى كتبنا : « علم اللغة » (الطبعة الرابعة ، فصل صراع اللغات ، وخاصة صفحات ٢١٠ — ٢١٨) ؛ « واللغة والمجتمع» (الطبعة الثانية صفحات ٩٦ — ١٠٨) ؛ و « فقه اللغة » (الطبعة الرابعة ، فصل صراع اللغة العربية مع غيرها من اللغات ، صفحات ١٢٣ — ١٢٧) .

فحسبنا هنا أن نقول إن قوانين اللغات تقرر أنه إذا نزح إلى البلد المغلوب على أثر فتح أو غزو جالية من أهل البلد الغالب تنطق بلغة غير لغة أهله ، فإن النصر لا يتم للغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط : أحدها أن يكون أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته وأقوى منه سلطاناً وأوسع نفوذاً ؛ وثانيها أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ؛ وثالثها أن تقيم بصفة دائمة غالبة يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب؛ ورابعها أن تمتزج بأفراد هذا الشعب ؛ وخامسها أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين تنتميان إلى فصيلة واحدة .

وقد توافرت هذه الشروط جميعاً فى حالة العربية مع الآرامية فى الشام والعراق ومع القبطية فى مصر ومع البربرية فى المغرب . فتغلبت العربية على هذه اللغات الثلاث وأصبحت لغة الحديث والكتابة فى جميع هذه المناطق، وانقرضت الآرامية والقبطية والبربرية. غير أنه قد أفلت من هذا المصير بعض قرى فى سوريا ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر ، وأفلت منه كذلك بعض عشائر فى شمال أفريقيا لا تزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى الوقت الحاضر .

ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال الشروط السابقة جميعاً ما عدا الشرط الثانى . ولم تقو على التغلب على القوطية لاختلال الشرطين الرابع والخامس. ولم تقو على التغلب على التركية لاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة .

بقى فى الدلالات على أصله ، وسمى لساناً حضرياً فى جميع أمصار الإسلام (١١٧١)

(١١٧١) تطورت اللغة العربية فى جميع البلاد الناطقة بها فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها وقواعدها وأساليبها حتى استحالت إلى اللهجات العامية . ولهذا التطور عوامل وقوانين تختلف كثيراً عما ذكره هنا ابن خلدون . وقد تكلمنا عليها بتفصيل فى كتبنا المذكورة فى التعليق السابق (انظر على الأخص كتاب « فقه اللغة » صفحات ١٢٧ — ١٤٦ الطبعة الرابعة) .

فحسبنا هنا أن نقول إن قوانين اللغات تقرر أنه متى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس ، فإنه يستحيل عليها أن تحتفظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا ، بل لا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل لهجة منها متميزة عن غيرها وغير مفهومة إلا لأهلها .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر . ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن أن تفلت — من هذا المصير . فمنذ أن اتسع انتشارها أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذى انشعبت منه فى كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات ، وسلكت كل لهجة منها فى تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها تحت تأثير ظروفها الخاصة ، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض . فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلا فى العصر الحاضر لا يفهمها المصرى إلا بصعوبة وفى صورة تقريبية . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

ويرجع السبب فى انشعاب هذه اللهجات من العربية الفصحى وفى تطورها المطرد فى نواحى الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات إلى عوامل كثيرة . منها انتشار اللغة العربية فى مناطق لم تكن عربية اللسان وتأثرها فى كل منطقة من هذه المناطق بلغتها القديمة . ومنها استقلال البلاد العربية بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات ؛ فانفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام فى الوحدة الفكرية واللغوية . ومنها ما يوجد بين سكان هذه المناطق من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان ... وما إلى ذلك ؛ فالاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير . ومنها التطور الطبيعى لأعضاء النطق واختلاف أوضاع هذا التطور باختلاف المناطق وما يتبع ذلك من تطور فى الأصوات وانقراض بعضها وتحول بعضها إلى بعض . ومنها موقع الصوت فى الكلمة وما يتعرض له من انحراف بسبب موضعه هذا ؛ وقد ترتب على ذلك سقوط علامات الإعراب من جميع اللهجات العامية العربية لوقوعها فى أواخر الكلمات ، =

وأيضاً فأكثر أهل الأمصار فى الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين فى ترفها ، بما كثّروا(١١٧١ب) العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم . واللغات متوارثة ؛ فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء ، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً .

وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب ، فإنها كانت أعرق فى العروبية . ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية ، فسد اللسان العربى لذلك ، وكاد يذهب لولا ماحفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلا بالأمصار . فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح ، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ، ولم يبق لها رسم فى الممالك الإسلامية بالعراق(١١٧٢) وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد

= لأن الأصوات الأخيرة تكون غالباً عرضة للسقوط والانقراض . ومنها تغير مدلول الكلمات تبعاً للحالات التى يكثر فيها استخدامها فى المناطق المختلفة . ومنها تغير مدلول الكلمة لأن الشىء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك . ومنها انتقال أصوات وكلمات وقواعد وأساليب جديدة إلى بعض اللهجات العامية العربية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها . ومنها انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه أو لثقلها على اللسان أو عدم تلاؤمها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق أو لدقة مدلولها وعدم الاحتياج إليه فى لهجات المحادثة العادية .

(١١٧١ب) هكذا فى جميع النسخ ، ولعل هذه الكلمة محرفة عن كلمة أخرى بمعنى أبادوا .

(١١٧٢) يقصد بالعراق بلاد فارس وما وراءها .

الروم ، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك . وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلباً لها ، فانحفظت ببعض الشيء . وأما في ممالك العراق [١١٧٢] وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين . حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس . والله أعلم بالصواب .

obeikandl.com